

الفصل الخامس

التَّهْمُ التي توجّه للخيام؛ انه إباحي، ومستهزئ بأحكام الإسلام وتعاليمه، وباطنى إلخ..

يقول أبو النصر مبشر الطرازي الحسيني في كتاب «كشف اللثام عن رباعيات الخيام»:

«إن الباحثين من الشرق والغرب عرفوا الخيام عن طريق ما نسبوه إليه من رباعيات وصفوها بأنها فلسفة الخيام، فمنهم من قال إنه أبيقوري النزعة والميل، ومنهم من ذهب الى أنه معرّي المذهب، ومنهم من رأى أنه إباحي، وأنه مستهزئ بأحكام الإسلام وتعاليمه، كما طعن فيه بعض الناس أنه دهرى، وزعم بعضهم أنه تناسخي، وظن بعضهم أنه باطنى، ولا أدري، وتشاؤمي، وجبري، وادعى البعض أنه ثائر على كل شيء من دين وأخلاق والعقل أيضاً، وليس لهم في كل ذلك دليل إلا تلك الرباعيات. وقد انخدع الباحثون والكتّاب والمترجمون بترجمة إدوارد فيتز جيرالد الشاعر الإنجليزي لتلك الرباعيات التي قام بها سنة ١٨٥٦م، ولم يفتنوا إلى الأغراض المذهبية والمكائد الاستعمارية التي لعبها أعداء الإسلام ورجال الاستعمار، والدور الخفي الذي كان لهم في نشر ما أسموه فلسفة الخيام، للنيل من الخيام وتعاليم الإسلام وماله من شعائر وأحكام. ونستطيع بكل جرأة وثقة أن نحكم بأن أكثرية الرباعيات موضوعة، وقد نسبوها إلى شخصية الخيام العظيمة من غير سند يُعتمد عليه، وأنها لا تتفق مع مكانة الخيام واتجاهاته ومنزلته العلمية.»

ويورد الطرازي أربعين رباعية يترجمها على أنها لا بأس بنسبتها إلى الخيام لعدم مخالفتها مبدأه الحقيقي وعقيدته الإسلامية، ويعترف فيها الخيام بعجزه عن الكلام في ذات الله وأسرار الأزل، ويلفت نظر الصحاب إلى الموت للتذكير والتفكير شأن أولى الألباب الذين يتفكرون في الله «ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك»، ويدعو أصحابه إلى تناول الخمر الحقيقية في حب الله والتوبة إليه قبل أن تغتالهم المنية. وقد تأوّل المغرضون هذه الرموز تأويلات فاسدة، وزادوا على الرباعيات رباعيات موضوعة.

ويقول رضا صديقي نخجواني في كتاب «خيام بنداري»:

«إن مقام الحكيم عمر الخيام النيسابوري أرفع من أن تنسب إليه تلك الرباعيات المستنكرة. ولقد أوجدوا خياماً موهوماً من نسج خيالهم، ودليلنا أنه كلما طال العهد على الرباعيات كلما زاد عددها، ويُعتقد أن قائل هذه الرباعيات أشخاص مُنطَوْن، انتحلوا رباعيات تعارض الدين، وتناقض المجتمع، ولا توافق العقل والعلم، ولا الأخلاق والتربية».

ويقول أحمد حامد الصراف في كتاب «عمر الخيام شاعر الرباعيات»:

«إن الذي بدا لي من رباعيات الخيام أنه كان جَمَّ الشكوك، كثير الارتباب، عظيم الاضطراب، ذا روح قلقة تحيط بها الهواجس والخطرات، ونفس متأللة تكتنفها الوسوس والخيالات، وقد ظهرت شخصيته في رباعياته بمظهر الشك المرتاب القلق، وذلك ما يدفع الباحث إلى الاعتقاد أنه كان متشائماً في عقيدته».

ويقول سيد قطب في «كتب وشخصيات» في مجال المقارنة بين الخيام وحافظ الشيرازي:

«فإن هناك اشتراكاً في الظاهر في خصائص الشعارين واتجاههما، ولكن ما أبعد ما بينهما في الحقيقة. وحينما ترورك في الرباعيات تلك اللهفة المحرقة لاستجلاء السر الأعظم الذي أوصدت بونه الأبواب، نجد الخيام يدقها دقاً عنيفاً متواصلأً، فمتى كَلَّتْ يداه وأدركه الإعياء وغشاه الملل، جلس يفرق أشجانه في كأس من الشراب».

ويقول عبد اللطيف الجوهري في كتاب «عمر الخيام ومسأله الرباعيات في ضوء

الإسلام»:

«والخطأ الأكبر الذي وقع فيه المعاصرون من الباحثين والأدباء أنهم اعتبروا أن رباعيات الخيام هي لعمر بن إبراهيم الخيام فعلاً، مع أنهم جميعاً يكونون يجمعون على شيئين: الأول: أن عمر الخيام كان حكيماً فيلسوفاً، وحجةً في عصره، وكان يجالس الملوك، وعالمأً في الرياضة والطب والفقه، والثاني: أن الرباعيات أمر لا يمكن الاجتماع عليه من حيث العدد ومعرفة الصحيح منها من غير الصحيح، وجميعهم يُجمع على أن هناك رباعيات منسوبة إلى

الحكيم النيسابورى مع اختلاف التعليل لأسباب الوضع. واستخلاص الصحيح من الرباعيات، وما يمكن أن يكون للحكيم النيسابورى من عددها غير متفق عليه أيضاً، فهو بين إحدى عشرة رباعية وسبع عشرة رباعية.

ويقول الشاعر وديع البستانى أول من ترجم رباعيات فيتز جيرالد الخيامية إلى العربية شعراً:

«فلا بد إذن من كلمة فى الرباعيات وتاريخها فإنها مجموعة أفكار تناقلتها العصور ولعبت بها الأغراض والأهواء كل ملعب، وقد اعتراها من الحذف والإبدال، وشابها من المتشابه والمكرر والدخيل، ما ترك أمرها مجالاً للبحث والتنقيب. ولا يذهبن عنا أن بعض الرباعيات منسوب إلى عمر الخيام وهو براءٌ منها. وبعض الرباعيات يناقض بعضه، فليس قليلاً ما تجد الرباعية الكُفْرية نسبةً إلى مغزاهما، تلو الرباعية الابتهاالية نسبةً إلى فحواها، فتحار فى أمر الخيام، ويتراوح حكك فيه بين النقيضين، شكك ويقينه، وكُفْره ودينه».

وقال أحمد أمين:

إن رباعيات الخيام غنية عن التعريف فقد ترجمت إلى لغات كثيرة، بعضها ترجمات حرفية، وبعضها استوحى فيها المترجمون روح الخيام ولم يتقيدوا بمعناه كما فعل فيتز جيرالد... وترجمت إلى العربية مراراً وتقبلها الناس قبولاً حسناً لما فيها من شنوذ أحياناً، ودعوة إلى الإمعان فى اللذة أحياناً، وأنا لا أوافق على هذه الدعوة، ولا على هذا الشنوذ، لأنه كما قال الفيلسوف كُنْتُ: إذا أردت أن تعرف شيئاً، أصحيح هو أم فاسد، فعممه». ونحن لو عممنا هذا المسلك لكان الناس كلهم إباحيين متلذذين بوهيميين، لا يابيهون لشيء إلا الخمر والنساء. ولو تصورنا مجتمعاً هذا شأنه لكان مجتمعاً منحطاً يسرع إليه الفناء. على أن الخيام نفسه قد يكون أدرك هذا المعنى فلم يحى الحياة التى دعا إليها، بل كان فقيهاً عالماً بالرياضيات ومخترعاً فيها. والمؤمن إيماناً تاماً بدعوته ليس أقل من أن يسير عليها هو نفسه. أما أن يكون عمله فى جانب ودعوته فى جانب، فإن دلَّ على شئ فإنما يدل على عدم الإخلاص التام فى أحدهما. ولقد وقفنا كثيراً عند مهاجمته للدين والسماء، ولعله فى ذلك مقلد لأبى العلاء المعرى فى لزومياته، ولكن اعتدنا أن نسمع من مشايخنا قولهم ناقل الكفر ليس

بكاfer، واعتقدنا أن هذه النزعات سواء من الخيام أو من أبى العلاء لا تحدث إلا فورة وقتية لا تلبث أن تزول، وأنهما إن كَفَر لسانهما أحياناً فإن قلبهما لا يفارقه الإيمان، كالذى قيل عن هيجل الفيلسوف الألماني الشهير أنه قد كفر عقله وأمن قلبه. ونحن فى حياتنا اليومية المشاهدة كثيراً ما نرى أفراداً متميزين يؤمنون كل الإيمان، ولكن قد تحدث لهم فورة وقتية بسبب حدوث كارثة فظيعة لهم، أو نزول مصيبة فادحة فى أموالهم أو أنفسهم أو نحوذلك، فيجانبهم الإيمان فى تلك اللحظة، ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى إيمانهم. فلعل الخيام كان من هذا القبيل، وجد الحياة كلها بؤساً وغمماً، ووجد الناس كالكلاب ينهش بعضهم بعضاً، ووجد عاقلاً بائساً وأحمق غنياً، فلم يجد مخرجاً له إلا الزنقة أحياناً، ثم تهدأ ثورته فيعود إلى دينه. وأقد صدق عمرو بن العاص إذ قال: ليس العاقل من لم يعرف الشر من الخير، وإنما العاقل من عرف الخير والشر، ثم تجنّب الشر». فلا بأس أن يُفرض على أنظارنا خير وشر، بل لا بأس أن يُعرض على أنظارنا خير كثير وشر كثير، فنفعل الخير عن علم، ونتجنب الشر عن علم.

وبعد....

...فما لا شك فيه أن بعض الرباعيات منحولة على الخيام، وهذا البعض هو ما لا يتوافق مع فلسفته التى عرضنا لها فى رسالته الأربع، وكما يقول إرنست رينان (١٨٦٨م): إن الذى يوقع المطالعين لرباعيات الخيام فى شك منها، هو صدور تلك الرباعيات ورواجها فى بلاد محكومة بالدين الإسلامى. ولا يوجد كتاب فى بلاد أوروبا ينفى العقيدة المذهبية الشائعة بل جميع المعتقدات الأخلاقية، بمثل هذا الطعن والاستهزاء الشديد!!

(١)

تهمة الباطنية

كانت الباطنية التى اتهم بها الخيام نتيجة رباعيات كهذه:

قد كان يدرى الله كل فعالنا
من يوم صَوَد طِيننا وِيرانا
لم نرتكب ننبأ بدون قضائه
فإذاً لماذا ندخل النيرانا؟

وإننا لنبحث في تاريخ الباطنية وفلسفاتها عما يمكن أن يشابه مقولات الخيام الفلسفية في الرسائل فلا نجد، وعلى العكس نجد تطابقاً تاماً بين مقولات الباطنية وبعض الرباعيات، وكان هذه الرباعيات قد صيغت تماماً على منوالها كما لو كانت تطبيقات شعرية لها، ومع ذلك فلسنا نجد للخيام شاعرية فيها، على نقيض الرباعيات التي فيها يشكو همومه الوجودية ويبين عن جزعه وقلقه.

والباطنية اسم مشترك لعدد من المذاهب يجمع بينها أنها تأخذ بتأويل النصوص الدينية كما لو كانت رموزاً وإشارات لها ظاهر يقنع به العامة، وباطن ينفذ إليه أهل علم الباطن. وقد استقرى الإمام الغزالي تحت هذا الاسم القرامطة أصحاب حمدان قَرَمَط، والخرمية نسبة إلى حاصل مذهبهم وهو الخُرْمُ الفارسية بمعنى الشئ المستلذ، فهم أصحاب مذهب اللذة، والبابكية نسبة إلى بابك الخُرْمِي، والاسماهيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق سابع الأئمة، والسبعية الذين يقولون بأن أدوار الإمام سبعة، وتدبير العالم السفلى المنوطة بالكواكب سبعة، والمُحَمَّرَة لصبغهم ثيابهم بالحمرة تمييزاً لأنفسهم، والتعليمية الذين يبطلون الرأى ويدعون إلى التعلم عن الإمام. ويقوم كتاب على دشتى عن الخيام على الدفاع عن التأويل كظاهرة عرقية عند الفرس حيث كانوا أمة متحضرة أخذت بالإسلام، فكان عليها أن تخرج على قيود النصوص رغبةً في تعميق صريحها ومجالات تطبيقها.

ويبدو أن الأخذ بالتأويل بدأ في الإسلام مع السبائية التي أسسها عبد الله بن سبأ اليهودي، ويقولون بأن علي بن أبي طالب وصى الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه لم يقتل بل توارى وسيرجع. وقال اللاحقون عليه بالتناسخ، بانتقال الأرواح المطيعة إلى أبدان طاهرة، والأرواح الشريرة العاصية إلى أبدان نجسة، وأسرفوا في القول بالأدوار، وأبطلوا الشرائع والقول بالجنة والنار، وأباحوا الفروج كلها، وأبطلوا النكاح والطلاق.

وقيل إن ظهور الباطنية في عهد الدولة السلجوقية كان ابتداءه في سجن والى بغداد حيث اجتمع فيه جماعة منهم دبّروا لدعوتهم وقالوا بالاستتار، وبنوا مزاعمهم على فكر شديد التطرف، وعلى التأمير العسكري لقلب أنظمة الحكم، وقالوا إن الأنبياء كلهم معزقون ومنمسون (يقال نمس عليه الأمر أي لبس عليه)، ووضعوا برنامجاً للدعوة تنتظمه تسع مراتب هي الزرق والتفرس، ثم التائيس، ثم التشكيك، ثم التعليق، ثم الربط، ثم التدليس، ثم التلبيس، ثم الخلع، ثم السلخ. فأنما الزرق والتفرس فهما تمييز من يمكن أن يُستدرج إلى المذهب ويتأثر بما يقال له، والتمويه عليه بما يحب والدخول عليه من ناحية طباعه، والتائيس

هو موافقة المدعو إلى مراداته بمعاملته، والتشكيك هو تغيير اعتقاد المستجيب بزلزلة عقيدته في حكمة مقررات الشريعة وأحكامها ونظام الكون، والتعليق هو ترك المستجيب في حيرته، والربط هو أخذ العهد عليه بالإيمان المغلظة، والتدليس بالاحتتيال عليه لإبطال ظاهر القرآن والاقتناع بأن له باطناً، والتلبيس هو مواطنته على مقدمات مقبولة ثم يستترجه منها إلى نتائج باطلة، وأخيراً الخلع والخلع بمعنى ترك حدود الشرع وتكاليفه والانسلاخ عن الدين بالكلية وهذه رتبة البلاغ الأكبر.

وهذه الخطوات مهمة جداً حيث نجد الرباعيات المنحولة على الخيام تأخذ بها وتسير على منوالها وتهدف إلى نفس أهدافها وتتوسل بنفس وسائلها في التشكيك والإقناع والانخلاع عن الدين.

ويلخص الإمام الغزالي الأسباب التي أدت إلى انتشار هذه الدعوة في أوساط العامة، والمثقفين بخاصة الذين لهم إنتاجات أدبية وفكرية ذات قيمة كالفلاسفة والشعراء، أن مبادئها كانت مناسبة لكل ولم تكن تكلفهم شيئاً، وعلى العكس كانت تعدّهم بإلغاء التكاليف عنهم، ولم يكن يندفع بها إلا المائلون عن اعتدال الحال واستقامة الرأي، وهم إما ضعاف العقول الذين جُبلوا على البهّة والبلادة مثل السواد الأعظم من أفجاج العرب والأكراد وجفافة الأعاجم وسفهاء الأحداث، وإما طائفة انقطعت الدولة عن أسلافهم بدولة الإسلام كأبناء الأكاسرة والدمافين وأولاد المجوس فهم موتورون حاقنون، وإما طائفة طامعة إلى العلياء ومتطلعة إلى التسلط والاستيلاء، وإما طائفة جُبلوا على حب التميز عن العامة والتخصّص عنهم، وإما طائفة سلكوا طرق النظر ولم يستكملوا فيه رتبة الاستقلال وإن كانوا قد ترقوا عن رتبة الجهال، كأن يمتقدوا محض الكفر تقليداً لأفلاطون وأرسطو، وداعيمهم إلى هذا هو التقليد، وإما طائفة تستأنس بالشيعة وتنجرّ معهم وتعتقد التدين بسبب الصحابة، وإما طائفة من مكّدة الفلاسفة والثوية والمتحيرة في الدين اعتقدوا أن الشرائع نواميس مؤلفة والمعجزات مخاريق، وإما طائفة استولت عليهم الشهوات فاستدرجتهن الدعوة إلى متابعة الذات.

وتتعلق الدعوة الباطنية بالإلهيات والنبويات والإمامة والحشر والنشر، فقالوا بإلهين قديميين، سابق وتال، والسابق المعلوم، والتالي خلق العالم، والأول هو العقل، والثاني هو النفس، والأول تام بالفعل، والثاني بالإضافة إليه ناقص، واستشهدوا بالآيات «إنا نحن نزلنا» و«نحن قسمنا» على صورة الجمع، و«سبح اسم ربك الأعلى» على طو أحدهما عن الآخر. وقالوا السابق لا يوصف بوجود ولا عدم فإن عدم نفي الوجود سببه، فلا هو موجود ولا هو

معدوم، ولا هو موصوف ولا غير موصوف، وكل الأسامى منتفية عنه، وكأنهم يتطلعون في الجملة إلى نفى الصانع، وسَمُوا النفى تنزيهاً.

وأبطلوا الرأى، ودعوا إلى التعلم عن الإمام المعصوم بلا مناقشة. وقالوا في النبي إنه شخص فاضت عليه من السابق بواسطة التالي، أي جبريل، قوة قدسية قابلة للانتقاش عليها بكلام الله، وتسميته بالكلام مجاز، لأنه قد فاض عليه من جبريل بسيطاً لا تركيب فيه، وباطناً لا ظهور له، وكلام النبي وتعبيره عنه هو الظهور الذي لا بطون له. وتنتقل القوة القدسية الفائضة إلى النبي من الرسول الناطق إلى الأساس الصامت، ثم من شخص إلى شخص إلى أن تصل الأئمة المعصومين القائمين بالحق، وهؤلاء يستظهرون بالحُجج والمائونين والأجنحة، والحُجة هو الداعي، والمائون هو المعاون له، والجناح هو رسوله المبلِّغ عنه.

وأنكروا القيامة، فالوجود له أطوار من ليل ثم نهار، والإنسان له أطوار من نطفة إلى الشيخوخة، وكذلك الحيوان والنبات، وهذا النظام لا يتوقف أبد الدهر، ولا يُتصور انعدام أجسام السموات والأرض. وأولوا القيامة فقالوا هي خروج الإمام وقيام قائم الزمان وهو الناسخ للشرع والمغيّر للأمر، ومعنى القيامة انقضاء الدور الحالي.

وأنكروا المعاد، ولم يثبتوا الحشر والنشر للأجساد، ولا الجنة والنار، وإنما معنى المعاد عود كل شئ إلى أصله، فالإنسان فيه جسماني وروحاني، فيعود جسمه إلى عناصر التراب والهواء، وأما الروحاني فإنها إن صفت فارقت إلى أصلها فتسعد بذلك وهذا هو الرجوع، فقول «إرجعي إلى ربك راضية مرضية»، وهي الجنة.

وزعموا أن كمال النفس بموتها لخلاصها من ضيق الجسد والعالم الجسماني، فإذا استعدت لفيض العلوم الروحانية باكتساب العلوم من الأئمة وسلوك طرقها المفيدة بإرشادهم، استكملت عند مفارقة الجسد، وظهر لها ما لم يظهر، ولذلك قال عليه السلام «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا». وكلما ازدادت النفس عن عالم الحسيات بُعداً ازدادت للعلوم الروحانية استعداداً، وكذلك إذا ركبت الحواس بالنوم اطلّعت على عالم الغيب واستشعرت ما سيظهر في المستقبل، إمّا بعينه فيغنى عن المعبر، أو بمثال فيحتاج إلى التعبير، فالنوم أخو الموت، وفيه يظهر علم لم يكن في اليقظة، فكذا بالموت تنكشف أمور لم تخطر على قلب بشر في الحياة، وهذا النفوس التي قدّستها الرياضة العملية والعلمية. فأمّا النفوس المنكوسة المغمورة في عالم الطبيعة، المُعْرِضة عن رشدتها من الأئمة المعصومين، فإنها تبقى أبد الدهر في النار،

على معنى أنها تبقى في العالم الجسماني تتناسخها الأبدان، فلا تزال تتعرض فيها للالم والأسقام، فلا تفارق جسداً إلاً ويتلقاها آخر، ولذلك قال تعالى «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب». فهذا مذهبهم في المعاد، وهو مذهب الفلاسفة، انتصر له كل واحد بما يوافق سابق معتقداته، فصار أكثر مذهبهم موافقا للثنوية والفلاسفة في الباطن، وللشيعة في الظاهر، وغرضهم بهذه المعتقدات انتزاع المعتقدات الظاهرة من نفوس الخلق.

هذا هو موجز مذهب الباطنية، وكأنما الكثير من رباعيات الخيام التي نشرها فيتز جيرالد وترجمها عنه البستاني والنشار والسباعي وغيرهم تطبيقات للدعوة الباطنية، سواء بالسخرية من الدين الإسلامي والاستهزاء بأحكامه، أو بالاستخفاف بالجنة والنار، والحدود وجنان الخمر، والولدان يطوفون بالكؤوس، واللذة للشاربين والاكلين، والحساب والنشور.

ويقول أحمد حامد الصراف: ومن يدقق النظر في رباعيات الخيام (يقصد طبعاً بعض الرباعيات) يجد أنها تتضمن جميع هذه المبادئ إلاً ما كان من أمر النبوات والمعجزات والوحي. والظاهر أن الخيام كان يتجنب مهاجمتها خوفاً على حياته، وابتعاداً من تعريض نفسه للمخاطر. وأما اجترأه على إباحة الخمر والملذات، والقول بقدّم العالم من طرف خفي، وإبطال القول بالمعاد والنشر، وإنكار الجنة والنار، فلأنه محتمل التأويل على طريقة الصوفية خصوصاً التغزل بالخمر التي قالوا في تأويلها إنها خمرة الحب الإلهي، وفي السكر أنه السكر المقدس، فقلبوا معاني الرباعيات الى معاني صوفية كما يقول المؤرخ القفطي ويستخلص الصراف أن الخيام «تأثر بالباطنية تأثراً قويا، وتكاد رباعياته تسوق إلى الاعتقاد بأنه كان من أعظم المبشرين بتلك المبادئ الهدامة، ومن أشد المناصرين لها، ولعله كان من دعائهم».

وأنا مع الصراف لو كانت الرباعيات التي تشككك هو نفسه في حقيقة نسبتها إلى الخيام صحيحة غير منحولة عليه، ولكن ما الرأي لو كانت رسائله الفلسفية تدحضها وتناقض كل ما جاء عند الباطنية من مبادئ؟ وفلسفة الخيام في الرسائل في الإلهيات تقوم على:

١- إيجاب الوجود لله تعالى، وإيجاب الأسماء والصفات التي له جميعها.

٢- والإقرار بالنبوة ورسالة النبي ولزومها لصالح العالم.

٣- والالتزام بالشريعة والإقرار بها لصالح الاجتماع الإنساني.

٤- ولزوم التربية الدينية من أجل التنشئة الصالحة.

٥- والإقرار بالجنة والنار والثواب والعقاب.

٦- والإقرار بالمعاد والقيامة والبعث والحساب.

وإذن لا يمكن أن يكون الخيام باطنياً، ولا يمكن أن تحُصَب عليه الرباعيات التي فيها الكثير من الفكر أو التعليم الباطنى. ولم يكن من المتأثرين بالباطنية التي كانت تزاخم الناس حياتهم الثقافية فى فارس وغيرها. ولا ينبغى أيضاً أن ننسى أن الباطنية شيعة، والخيام سُنّى، ولا يجب بأى حال من الأحوال أن يغيب عن بالنا للحظة أن اسمه السنّى «عمر» هو اسم يكرهه الشيعة حتى النخاع!

ورغم أن المراجع قد أوردت قصة له مع المدعو حسن بن الصباح المتأمر الباطنى الأحمر حيث كانا يدرسان سوياً والوزير نظام الملك فى مدرسة الشيخ موفق، إلا أن تأثير الصباح على الخيام لا يمكن أن يكون التأثير الإيجابى الذى يطمح اليه المدأسون، فالشخصيتان منفردتان تماماً، والخيام فيلسوف وشاعر، والصباح عسكري متأمر وداعية سياسى. ولكم اختلفُ مع الدكتور مصطفى غالب صاحب كتاب «الثائر الأحمر حسن بن الصباح»، ولكم تعجبت من الهوى كيف يحرك الأتلام فتعيد عن الحق، وكيف يزور الحقائق ويشوه التفكير والوجدان، فتلتبس الأمور ويظهر الحق باطلاً والباطل كالحق، وأنا أقرأ للدكتور غالب نعيه على عصر الخيام أنه العصر الذى أنتج الغزالي الإمام ونظام الملك الوزير! ولما أراد الدكتور أن يشرح بعض المفاهيم الباطنية عند الاسماعلية تاه عن القصد، وتردى فى متاهات الشطح والخرافة، وكان أبعد ما يكون عن الفلسفة!

(٢)

نماذج من رباعيات باطنية منحولة على الخيام نظمها الصافى النجفى

* فى الخطيئة المقنونة والجرم الإلهى:

إلهى قل لى من خلا من خطيئة؟

وكيف تُرى عاش البرئى من الذنب؟

إذا كنت تجزى الذنب منى بمثله

فما الفرق ما بينى وبينك يا ربى؟

* في عدمية الحياة والفكر:

يا باتياً رهن الرياء ورائعاً
لقصير هيهك في هناء متعب.
أتقول أين تروح من بعد الردى؟
هات المدام وأين ما شئت اذهب!

* في القضاء والقدر:

فَتَوْنَا لَدَى الْأَنْلَاكِ الْعَابِ لَامِبِ!
أقول مقالاً لست فيه بكاذب -
على نطع هذا الكون قد لَعَبْتُ بِنَاءِ
ومدنا لصندوق الفَنَّا بالتعاقب!

* في الجنة والحور وطلب الثواب في الأرض القريبة لالجنة البعيدة:

قال قومٌ ما أطيب الحور في الجنَّةِ
لعة! قلتُ المدام عندي أطيب!
فاغنم النَقْدَ، واطرك الدين، واعلم
أن صوت الطبول في البُعد أهدب

* في استواء الأيام ولا قدسية بعضها:

إنْ تَشْرَبُ المدام أسبوعاً فلا
تدع لذي الجمعة قُدساً تُرَبِّها.
السبتُ والجمعة عندي استويا -
لا تعبد الأيام واحبدي ربيها!

* فى العانة كمثل عبادة لإله الخمر:

هذا أوان الصبوح والطرب،
ونحن والهان وابنة العنّب.
أصنّت نديعى - هل ذا محل تُقى؟
واشرب وخذلّ الحديث واجتنب!

* فى التوبة واستواء قبولها وعدمه:

لا عشتُ إلا بالفوانى مغرماً،
وعلى يديّ تَبِر المدام الذائب.
قالوا سَيَقْبَلُ منك ربك توبة -
لا الله قابلها ولا أنا تائب!

* فى أن الإنسان خُلِق على أحسن صورة ثم ينقض الرب الصورة:

لماذا غداة الرب ركّب هذه الـ
مناصر؟ لم يُحكّم تناسبها الرب!
إذا راق مبناها فقيم خرابها؟
وإن لم ترقّ مبنى - فممن أتى العيب؟

* فى الخير الذى يقول إننا نبعث على ما كنا عليه - إذن اختار الخمر والحببية

أموت عليهما لأبعث عليهما:

يقول المتقون غداً ستحيا
على ما كنتَ فى هذه الحياة،
لذا اخترت الحببية والحُميا،
لأحشر هكذا بعد الممات!

* في عدم جدوى التفكير والعجز عن حل لغز الوجود، وأن الموت هو الحقيقة:

إن الألى بلغوا الكمال وأصبحوا
ما بين صحبهم سراج النادى.
لم يكشفوا حَكَّ الدياجى بل حكوا
أسطورةً ثم انثنوا لوقاد!

* فى السفرية من رمضان:

قد قيل لى رمضان جاء، فسوف لا
تسطيع رشفاً لابنة المنقود
فسأحتسى بختام شعبان الطلا
مَلاً لتصرعنى ليوم العيد!

* فى مبيتة الأخذ بالدين:

سمى لقصود الخلد والحدود معشر
ودان فريقتاً بالجزاف قد اغتَرا.
سيبدو لهم إن ينجل الميتر أنهم
نأوا منك أقصى النأى فى ذلك المسرى!

* فى أن الجنة فيها أنهار العسل والخمر، وفيها الكوثر والحدود فلماذا هى حلال
هناك وحرام هنا؟ أعطنى ثوابى نقداً الآن أفضل:

قيل خلدُ غداً وصور وكوثر،
أنهر من طلا وهند وسكرا
فعلى نكرها أدّر لى كاسا -
إن نقداً من ألف دين لأجدرا

* نفس المعنى السابق:

يقولون حوداً في الغداة وجنة،
وثمة أنهار من الشهد والخمر.
إذا اخترتُ حوراء هنا ومدامة
فما البأس في ذا وهو عاقبة الأمر؟

* لماذا يخلق الله الجمال ثم يحطمه:

هل الجام مهما تم صنُوعاً ودقة
يرى كسره مَنْ كان منتشياً سُكراً؟
فقيم برى الخلاق ساقاً لطيفة
وراساً وكفاً ثم يكسرها كسراً؟

* في أن هذا الكون مستعبد، ولو كان الأمر بيدي لخلقتَه أفضل حسب
مشيئة الأحرار:

لو كان لي كالله في فك يد
لم أبق للأفلاك من آثار!
وخلقتُ الملاكاً تدور مكانها
وتسير حسب مشيئة الأحرار!

* يسأل الله هل تزيد طامته له من ملكه، وهل تنقص خطاياهم من قدره؟ ويأخذ
على الله البطء في الاستجابة كلما دعا:

سألتك هل زادت بمُلكك طامتي
وهل انقصت منه خطاياي من قدر؟

فدعني ودع نصرى فطبعك بان لى
سريعاً لخذلان بطىء عن النصر!!

الا تمّ لنحصوها ونُعملُ حُودنا
ونُبدل حُسن الصيت بالعار والرجس!
ودعنا نبيع بالكاس سجادة التقى
ونكسر فوق الصخر قارورة القدس!

إذا ما أتينا خاشعين لمسجد
فلم نأت نقضى للصلاة فروضها
ولكن سرقتنا منه سجادة، ومد
عراها البلى جننا لى نستميضها!!

(٣)

تهمة الإباحية أو الخلاعة

الإباحية دعوة لها فلسفتها، وأصحابها من المبغضين، قالوا ليس لنا قدرة على اجتناب المعاصى، ولا على الإتيان بالمأمورات، وليس لأحد فى هذا العالم ملك رقية، ولا ملك يد، والجميع مشتركون فى الأموال والأزواج.

وتسميتهم بالمبغضين لأنهم أبطلوا جميع الشرائع والعبادات، وحلوا كل ما حرم الله فى كتابه وعلى لسان نبيه، وقالوا إن كل ما أنكره أهل الجود مباح لهم، وأن ما أمر به الله من صلاة وزكاة وحج وصوم وعبادة هى أضرار وأغلال، فهى على أهل الجود دونهم عقوبة لهم، وأن المحرمات من الزنا والخمر والربا والسرقه واللواط وكل الكبائر، وكذلك الوضوء وغسل الجنابة والتيمم - كل ذلك هو اجتناب رجال ونساء وتوليتهم، فإذا حرمت على نفسك توليتهم واجتنابهم فقد اجتنبت ما حرم الله عليك. وأباحوا الفروج كلها، وزعموا أن النكاح باطنه

مواصلة أخيك المؤمن، فإذا وصلته فقد نكحته. والصداق أن تطلع أخاك المؤمن على ما عندك من العلم والمعرفة. والطلاق أن تمتزأ أصدادك فلا تطلعهم على أمرك. والمراة بمنزلة الريحانة تخلعها متى شئت، وإذا شممتها فقد حبيت بها أخاك المؤمن.

هؤلاء هم إباحية المسلمين، وتلك طريقتهم، وكان الإباحية طريقة فى أخذ الدين، أو فى التصوف. والإباحيون يطلقون على أعضاء جماعتهم اسم الإخوة المؤمنون، ويتحدثون فى الإباحية حديثاً يدخلون فيه الدين، ويتكلمون على أخص علاقة بين المرأة والرجل فيستخدمون فيها المصطلحات الشرعية، وكاننا الإباحية مدرسة فى التفكير ومنهج سلوكى. فهل من ذلك شىء فى هذه الرباعيات المنسوبة للخيام؟ يقول:

جاء من هاننا النداء سَحِيرًا
يا خليعاً قد هام بالهانات
قَمُّ لكى نملا الكؤوس مُداماً
قبل أن تمتلىء كؤوس الحياة

ويصف منتحل هذا الشعر نفسه بأنه خليع ويضيف نفسه إلى الهانات - خليع الهانات - ثم يقول مخاطباً القارئ:

ما اسطعتَ كن لبتى الخلاعة تابعاً
واهدم بناء الصوم والصلوات
واسمع من الخيام خير مقالة
إشرب وغنَّ وسِرَّ إلى الخيرات

ورغم أنه يجعل من الخلاعة فرقة يسميها بنى الخلاعة إلا أنه لا يتحدث عنها كمذهب، وإنما كسلوك قوامه: الشرب والغناء، والتردد على الخيرات ويقصد بهن الخيرات الحسان فى سورة الرحمن سخرياً بالقرآن!

هذه هى الإباحية فى الرباعيات، وأما الإباحية التى وصف بها النقاد الخيام فهى أكبر من ذلك، لأنها مذهب وطريقة فى التفكير والسلوك تتناول حتى الإلهيات. وهذه الرباعيات المنسوبة له، لا ترقى كما ترى حتى أن توصف بأنها شعر، وإنما غاية ما تقصد إليه هو أن تكون منصرفاً منصرفات الخلاعة، مجاله إدمان الخمر تقول:

نعم إننا من راح المجوس بنفوسه وصبّ خليجاً لم أزل مُدمن الراح

ولو قارنا فلسفة الخيام في رسالته حكمة الخلق والتكليف بمذهب الإباحية فلن نجد أن الخيام يمكن أن يندرج تحت وصف الإباحي. وكيف يوصف بالإباحية من يظهر مثل هذا الالتزام الديني والأخلاقي الذي يبين بجلاء ووضوح من ثانيا الرسالة؟ فالإنسان كما يرى الخيام لم يُخلق عبثاً، وكل فرد في مجتمع الإسلام منوط به عمل، والأخلاق عماد الاجتماع، والشريعة هي السداة واللحمة، ولكي تكون للشريعة قداستها لابد أن يكون مصدرها الله تعالى، وهو الواجب الوجود، والإيمان به ضرورة فلسفية وعملية.

فهل مثل هذا الفيلسوف يمكن أن يكون هو نفسه هذا الخليج كما يدعو نفسه الذي انتسابه لبني الخلاعة بون بقية بني البشر؟!

ثم ما هي القيمة الأدبية لامثال هذه الرباعيات المنسوبة للخيام؟ ما هو الجديد الذي تضيفه؟ أو ما هي الصور الشعرية التي تقدمها وتستحق بسببها أن تترجم إلى كل اللغات؟ يقول الشاعر الألماني هيلدرن إن قرص الشعر هو أوفر الأعمال حظاً من البراعة. والبراعة التي يقصد إليها والتي يمكن أن تكون للشاعر هي البراعة الأخلاقية، بمعنى أن الشاعر لا يمكن أن يكون شاعراً ولا أخلاقياً. ويعلق الفيلسوف الوجودي مارتن هايدجر على مقالة هيلدرن فيقول الشعر مجاله المحبة، والشاعر موجود إنساني يتدثر بالاحتشام، لأنه من أحرص الناس على وجوده. والشاعر يحافظ على روح الشعر كمحافظته على روحه. وفي محافظته على هذه الروح كما تحافظ الكاهنة على النار المقدسة يكمن نكاؤه. ولهذا مُنحت له حرية الاختيار، والقدرة على التنظيم، وعلى الإنجاز، لأنه كخالق كآته إله. والموجود الإنساني أعطى اللغة وهي أخطر ما أعطى من النعم، واختص الشاعر أكثر ما اختص بنعمة اللغة، لأنه يخلق بها، ولأنه يشهد بشعره على ما هو موجود، ويحافظ به على ما هو قائم، بالمحبة التي هي أعظم ما يمكن أن يحفظ الحياة!!

فهل هذا الشعر من ذلك؟ وهل كان يستحق هذه الضجة التي أثيرت حوله؟ ثم ألا يتوجب علينا قبل ترجمته وبذل العناء من أجل نشره أن نسأل لماذا هذه الرباعيات بالذات بون كل رباعيات الشعر الفارسي التي - بإقرار الجميع شرقاً وغرباً - هي من أعظم الشعر الذي يمكن أن يُنشد لشاعر؟ رباعيات أبي سعيد بن أبي الخير، والشيخ عبد الله الأنصاري وبابا

طاهر الهمداني. وفي فن الغزل هناك السنائي وجلال الدين الرومي والحافظ الشيرازي والجامي. وفي فن المثنوي هناك الفردوسي والنظامي والطار والسعدى! هناك الكثير... العظيم والجليل، والجميل والسامي، الذي يستحق الترجمة والنشر، فلماذا الإصرار على هذه الرباعيات بالذات؟!

(٤)

تهمة الأبيقورية

ينفى الأديب المازني عن الخيام فى كتابه حصاد الهشيم فى مقال بعنوان «التصوف والأدب» - أن يكون الخيام أبيقوريا، ولكنه نفى من منطلق مختلف عن منطلقنا، فيقول: إن أبيقور لم ينكر الآلهة وإنما استنكر أن يكون لها دخل فى أمور تسيير الكون. وهى ليست نفسها إلا نتائج نظام الطبيعة، أى ليست سوى نوع راق من الإنسانية، ولا يقلل ذلك من شأنها ولا من إجلالها، لأنها فى المقام الأول مُثلٌ عليا تُحتذى، وأحوالها من النعيم الذى يُرتجى. والتواصل بها لا ينبغى إذن أن يكون الباعث عليه الخوف ولا حتى الأمل. والخيام نقيض ذلك لأنه يقول بالقضاء والقدر، وأن القلم قد جرى بهما منذ الأزل وإلى الأبد:

أبدأ يسطر ما شاء القلم * ثم يمضى نافذ الحكم أهم
ليس يمحو نصف سطر ودع * لا، ولا يفسله دمع سجم

ويقول المازني بأن أبيقور يرفض نظرية القضاء المحتوم والنظام المقدر الذى على الإنسان امتثاله والإذعان له. ويرفض الضرورة ويقول بالاستطاعة للإنسان، وبأنه يمكنه أن يعيش إلهاً بين البشر، على عكس الخيام الذى قال بالجبر وأن الإنسان كرهة فى يد المقادير، إلا أنهما - أبيقور - والخيام - اتفقا على أن الإنسان إذا مات وفنى وانقضى أمره فلا بعث ولا حساب. يقول الخيام:

هذت بالكاس لعلى بلمى * استلقى سرّ الحياة الأظم
فأسرّت شفة الكأس: ارتشف! * ما لميت رجعة من عدم

ويقطع المازني بلا علمية مذهب أبيقور، ويرجع الخطأ فيه إلى عجز صاحبه أن يهتدى إلى الانتظام فى الكون والارتباط بين ظواهره، وأما فلسفة أبيقور الأخلاقية فهى ضرب ملطف من

الهيونيزم، أى المذهب الذى يقول إن السعادة هى الخير فى الحياة، وهى نتيجة منطقية لعقيدته، بيد أنه لم يدع قط إلى الشهوانية الصريحة، وإنما فعل ذلك أتباعه حتى صارت الأبيقورية والشهوانية الإباحية مترادفتين. وليست اللذة عنده ما يقتنصه المرء من متع الساعة الحاضرة، بل هى أقرب أن تكون عادة من عادات الفكر تلازم المرء، وحالة سلبية لا إيجابية ولا فعالة، أشبه بالسكون والاطمئنان منها بالاستمتاع. ومحك الاستمتاع عند أبيقور هو زوال كل نواعى الألم، وتحرر الجسم منه، واستراحة العقل من التعب، فكأن السعادة عند أبيقور لذة جليلة رزينة - راحة قلب وخلو بال وانتفاء للآلام. ويتساؤل المازنى: فأين هذا من الخيام؟ إنه رجل لا يستقر على حال من القلق والتبرم، ومن التساؤل والتفكير. لا يبحث يهديه ولا الكأس تسليه، ولا الكتاب والرغيف وزق الخمر وغير ذلك بمؤتيه راحة النفس وفراغ الفؤاد وانتفاء الآلام. ولقد صار الموت عنده خاطراً مخامراً ينقص عليه كل لذة ويكثر صفوكل نعيم. والفرزغ من الموت هو أساس تفكيره والذى تقوم عليه كل نظراته. ومن ذا الذى يقرأ له هذه الصرخة الخارجة من أعماق قلبه ويخطر له بعدها أن يستشعر الراحة لحظة واحدة؟

إيه أمهلنى بصحراء البيود * أتفوق سر ينبوع الوجود
أفل النجم. مضى الركب إلى * فجر لا شئ - فمجلّ يامجود !

(والمجود هو الظمان). والخيام قد يمزح ويتهمك:

يا أخلانى لقد كنتم شهوى * حين دار القصفُ فى مرسى الجديد
طلّق العقل عقياً وهدت * بنتُ هذا الكرم زوجى وهقيدى

ولكنه تهكم الموجع الذى لم يهتد إلى شئ؛ ولم يحل لغزاً واحداً، وسخرية اليأس الذى لا يرى إلا رضى تدور على الناس بالإرداء (يعنى الموت)، وضحك الساخط على عجزه عن تخليص رجلئيه من شباك الأقدار، وعن لمح بارقة واحدة تجلو له بعض ما خبأه الغد، ومزح الأسف لاضطراره أن يرتد إلى اليوم الزائل حتى ليتمنى أن يقف على سر نظام هذا الكون ليمزقه ثم يعود فيصبه فى قالب أدنى إلى رغبة قلبه وهوى نفسه.

وهند أبيقور طالب السعادة عليه أن يروض نفسه على توحى الحكمة واستهداء العزم فى الموازنة بين اللذات والآلام المقدرة، وأن يتلمس طريق الاستمتاع، ويخطو فيه بحذر، ولهذا كان العزم عند أبيقور أسمى الصفات وأساس الفضائل، وقوة أنفُس من الفلسفة، وهو ضرورى فى التماس الملاذ وتحرى نظام الحياة. ومع أن الإحساس عنده هو واسطة التمييز بين الخير

والشر، إلا أنه يخضع للعقل ويدع له الفصل في قيم الذات بغية الفوز بهدوء النفس والجسم وراحة العقل. وأما عند الخيام فالعقل لا يغنى الإنسان شيئاً لأنه كيف أمعى:

صحت حيران بأجواز السماء * أى نبراس به يهدى القضاء
سبيةً تعثر فى هذى الدجى؟ * فأجابتنى «بمكفوف الذكاء»؟

هذا هو رأى المازنى إذن فى قضية أبيقوريه الخيام: النفى التام أن الخيام أبيقورى.

وأعظم من ذلك فى رأى أن المازنى يُقدّم تحليلاً رائعاً للخيام كشاعر وجودى ويصفه كإنسان موجود بالقلق والهَمّ والتفكير - وموجود بأن يعيش حياته كسييف فى الأسطورة، رضى أم لم يرض. والمازنى إذن يتفق معى فى وجودية الخيام. وكثيرون معى يوافقون على أن الخيام وجودى، وسيرد ذلك إن شاء الله فى الفصول اللاحقة - إلا أن المازنى لم ير كما أرى: أن الخيام قد حلَّ إشكال وجوده الأسيان بالفن ووجد الخلاص لنفسه فى فن الشعر دون بقية الفنون. وتوقَّف المازنى عند صورة الخيام لدى فيتز جيرالد: أن الخلاص بالخمرة! - أقول توقف المازنى يجعلنا نفكر ونسأل لماذا اختيار فيتز جيرالد أو المازنى لهذه الصورة العادية للخيام، ولهذا الحل المبتذل؟! وهى صورة لا يمكن أن تكون للخيام الفليسوف، حجة الحق، وسيد الحكماء!! ولا يمكن أن تكون الخمر هى الحل الذى قد اهتدى إليه علامة الزمان والرياضى الغذ والفلكى النابغة!! ولا يمكن أن يكون السُكْر هو رسالة الخيام التى يهديها للأجيال والبشرية، والحل الذى تفتق عنه ذهنه لمعادلة الوجود الصعبة!

وأبيقور الذى تُنسب إليه الخيامية - فى ظنى - على عكس ما يرى المازنى - يشبه الخيام الذى حكى عنه فيتز جيرالد والذى تنسب إليه بعض الرباعيات المزيفة. وحينما أقول بهذا الشبه لا أقلل من قدر أبيقور، ولا أرفع من شأن الخيام، ولا أتناقض مع نفسى، وذلك لأن الرباعيات جميعها فيها فى الواقع من «عمر الخيام» اثنان، بل ثلاثة، فهناك «الخيام الحقيقى» - وهناك خيام آخر يناقضه: الخيام النقيض - وهناك أيضا صورة خيامية هزلية ليست من «الخيام الحقيقى» ولا من «الخيام النقيض»، أقواله فيها غثّة، وشعره ركيك، وكأنى بالرباعيات - إذا قلنا إنها لشاعر واحد - فإنما هو شاعر يعانى الانقسام، وكأنه الصورة النموذجية لمرض ازدواج الشخصية من أمراض الطب النفسى - وكأنه هواء ذات الوجوه المتعددة، التى تظهر مرة، كما تقول الرواية، فى صورة هواء البيضاء، ثم تظهر أخرى فى صورة

هواء السوداء، ثم الثالثة فى صورة لا هى من هذه، ولا من تلك.

وأبيقور الذى يشبه «الخيام النقيض» كان يقول بما قال هذا «النقيض»، لدرجة أنى أكاد أجزم أن قارض الرباعيات المنحولة يدري تماما عن مذهب الأبيقورية الذى كان معروفاً لدى المسلمين، وكان محط عنايه الباطنية بالذات، وهو الذى استقرأه القفطى فى الرباعيات المنحولة فقال عن الخيام إنه كان «يَعْلَمُ عِلْمَ اليونان»، يعنى أن هذا الخيام لا بد أن يكون أبيقورى فعلاً.

* وأبيقور يقول إن أنواع العلوم لا نفع فيها للإنسان لأنها لا تمنحه السعادة، وكذلك الفلسفة. والخيام قد شكَّ فى جدوى العلم والمعرفة والفلسفة والحكمة والمنطق والقياس، وتحسّر على نفسه أن حان حينه ولم يتح لفكره أن يحل لغز الوجود، ويقول إنه متحير بين شتى الأفكار، وأنه جاهل بل «حمار»، وأن قضيته ليست مسأله قديم العالم أو حدثه، والدين إطلاقاً لا يهمه، وشيوخ الدين ربما أضلّ منه.

* وأبيقور يرى أن العناية الإلهية وهم من الأوهام، فأين هى هذه العناية الإلهية فى عالم يحظى من الشر بنصيب أكبر آلاف المرات من نصيبه من الخير؟ ومصير الخير فيه أسوأ بكثير من مصير الشر؟ وأين هى هذه العناية الإلهية فى عالم لا يصلح إلا النذر اليسير منه لسكنى الإنسان؟ وأين هذه العناية التى كانت تنبغى للإنسان وقد خلق فى الدنيا أعزل من كل سلاح، بل إنه الحيوان الأكثر حرماناً من كل سلاح؟ وكيف تكون هناك عناية إلهية والمعنى الذى لا بد أن تنصرف إليه هو أن يكون الله مهموماً بأحوال البشر، وأنه يتأثر لهم، ولو فعل فلن يتفق ذلك مع السعادة التى تليق به تعالى، لأنه سيتكرر لما يحيق بالإنسان وبما فى العالم من شرور؟

وهذا الخيام النقيض يرى نفس الرأى ولا يجد أن الله يولى الكون العناية الواجبة، ويقول لو آل إليه أمر الوجود فسيخلقه خلقاً جديداً، وسيجعله وجوداً جديراً بالأحرار وليس وجود «عبيد».

* وأبيقور قيل فيه إنه قد اضطر إلى مسايرة المعتقدات الشعبية فى الله مخافة أن تنقلب الجماهير عليه. وقيل إنه ساير الناس فى معتقدهم فى الله طالما أن إيمانهم بوجوده قد بلغ هذا الحد، فلا بد أن هناك شيئاً من الحقيقة فى هذا الإيمان، ولا بد له أن يتعامل مع هذا الاعتقاد واقعياً طالما هو فى خاطر الناس.

والخيام النقيض تحدث في وجود الله كقضية مُسلّم بها غير قابلة للنقاش لأنها معتقد شعبي. بل إنه خشي على نفسه حينما بدأ يلزم الإلهيات، فصرّح بإليمان، وسافر إلى الحج «مناقاة» كما يقول القفطى.

* **وأبيقور** من وجهة نظر أخرى دعته إلى الإقرار بوجود الله نظرة جمالية أخلاقية، فقد وجد أن فكره الألوهية تجسيم لصورة مثالية عليا لدى الإنسان، فلكي يتمثل الإنسان مثلاً أعلى للفضيلة والسعادة فعليه أن يستقر في وجدانه الإيمان بالله كصورة عليا للفضيلة والجمال، إلا أن هذه الصورة لله هي صورة من أمثال الإنسان وليست من الواقع، قد صنعتها أمانيه وأماله، ولأنها من أمثاله فقد جاءت صورة إنسية أى على منوال الإنسان. ولأن الانسان أجمل وأكمل الكائنات، فالصورة عن الله جاءت أجمل الصور وأكملها وأجّلها. وهي صورة فيها مع ذلك كل صفات الإنسان إلا الشقاء والتفكير والفساد والفناء. والسعادة الإلهية هي نوع من الطمأنينة السلبية تمثل المثل الأعلى للأخلاق الأبيقورية، ولهذا نجد أن الله عند أبيقور لا ينفعل للإنسان وألامه، ومن ثم أسقط الأبيقوريون قيمة الصلاة لله لأنه لا يجدى معه دعاء.

وكذلك **الخيام النقيض**، فهو ينمى على الله أنه لا يسارع لنجدة المظلوم والمهوف، وأن السماء صماء، وأنه لم يخلقه على الاختيار وأنه ليس ربّ اختيار، والوجود الذى صنعه لم يصنعه على الاختيار. ومع ذلك فإن فكرة الله لا تخلو من وجهة، وهي تصور لما كان يتمناه الإنسان لنفسه. والله لا يخلو من جمال، والطبيعة هي مجلّى هذا الجمال، وفكرة الله فيها التفسير لوجود الجمال في الكون.

* **وأبيقور** يقول إن الأصل في المجتمع هو الفرد، والمقياس الأخلاقى على ذلك ينبغى أن يكون هو المقياس الفردى. **والخيام النقيض** الذى وصفه القفطى من الرباعيات المزيفة «سئ الخلق» ويفسر ذلك بأنه يضيق بالخلق ويعتزل الناس.

* **وأبيقور والخيام النقيض**: كلاهما يرى الخير في اللذة ومفارقة الألم. وكلاهما لا ينظر إلى اللذة باعتبارها الحسى، ويفاضل بين اللذات والألام. ويجعل بعض الألام أفضل من بعض اللذات، لأن احتمال هذه الألام قد يؤدي إلى لذة أكبر، أو لأن اجتناب هذه اللذات قد يؤدي إلى تجنب آلام أكبر. وكلاهما يجعل المقام الأول للذات الإيجابية على السلبية، ويجعل أساس الأخلاق تحصيل اللذة وتجنب الألم، ويسخر من الواهمن الذين يقولون بالخير للخير

أو الفضيلة للفضيلة بصرف النظر عما فيهما من ألم ولذة.

* ويبدو أبيقور والخيام النقيض وكأتهما يقولان أن بعض اللذات ضرورية وخير، وبعضها ضرورية وليست خيراً، وبعضها غير ضروري وليست خيراً. ومن الأولى ما يحتاجه الإنسان لطعامه وشرابه ولباسه أو ما يسمى «الرزق»، ومن الثانية ما تهواه النفس كالشعر والأدب والفلسفة، ومن الثالثة الوسواس والشهوات الرتية.

* والحكيم عند أبيقور يتعلق بالأولى، ويميل إلى الثانية، وينكر الثالثة. والحكيم عند الخيام النقيض هو الذى يميل إلى الثانية ويأخذ بالأولى بقدر مقدر، ولا يتبع الثالثة. وذلك هو الفارق الجوهرى بين أبيقور والخيام المتوهم أو النقيض وهو فارق فى سلم اللذات عند كل منهما.

وكما نرى فإن هذا الخيام المتوهم أو النقيض، فيلسوف، وله منهج وفكر، وفكره مؤسس على مذهب من أكبر المذاهب الفلسفية الغربية- المذهب الأبيقورى. وهذا نفسه هو السبب الذى أعجب فيه فيتزجيرالد، وهو كل ما رآه فى الرباعيات بقضئها وتضيئها، وصانقتها وزيفها وصحیحها ومنحولها، فلم يفهم منها إلا هذا الخيام، والتقطت بصيرته «الغريبة» منها جوانبها الأبيقورية بون غيرها.

والذين حاروا فى تفسير إقبال الغرب على الرباعيات لم يدركوا لأول وهلة هذا السر، ولم يستوعبوا ما فى الرباعيات المنحولة على الخيام من فلسفة هى هذه الأبيقورية - فلسفة كاملة متكاملة وليس مجرد اتجاه أو منحى عادى.

والأبيقورية هى بشارة هذه الرباعيات، ولعل ما فيها من «عظمة مناسبة للبعض» هى أنها صورة شعرية لمذهب فلسفى انتشر أيما انتشار - هنا وهناك - دعوة لأسلوب فى الحياة يعجب الكثيرين، فى عصور لا تعمد أن تجد فيها من يأخذ الأمور هذا المأخذ الهين اللين. وليس بغريب أن يكون أكثر الداعين للأبيقورية كلفسة وطريقة فى السلوك، هم أهل الأدب والنقاد الذين موضوعهم الإنسانية، لتقارب فى الميول والاتهام. وكان منطقياً إنن أن يروج هؤلاء للرباعيات المزيفة المنحولة، وخاصة تلك التى رويت عن فيتزجيرالد. وإنه لشيء نر بال أن سيرة حياة هؤلاء المترجمين فى الغرب والشرق لا تخلو من كثير من التثريب. ويعرف المشتغلون بعلم النفس والطب النفسى ما يسمى الإسقاط النفسى وهى حيلة نفسانية يراد بها أن نخرج ما فى نفوسنا ولكننا ننسبه لآخرين حتى لا يقع علينا الملام، وكأتى هؤلاء الذين

ترجموا لعمر الخيام النقيض، يريدون بترجماتهم أن يعبروا عن أنفسهم ويقولوا على لسان الخيام ما لم يستطيعوا أن ينسبوه خالصاً لأنفسهم. وقد بما قيل ناقل الكفر ليس بكافر، غير أنى إن كنت قد أوافق على هذه المقولة فى أى مجال، لا أقر بها فى الشعر، لأنه من الوجدانيات، أرفع ما يمكن أن يصدر من «الكلام الإنسانى». وهو التزام، وكذلك هو دعوة أخلاقية، وكل دعوة هى سياسة، وخطورة الشعر أنه يمكن أن يبلغ الغاية فى التأثير فى السامع والقارئ، وأن يصوغ الأفراد والناس صياغة قد تنحرف بالفرد وبالامة أو قد تعلق بهما!....

«نماذج من الشعر الأبيقورى فى الرباعيات»

* فى مذهب اللذة (الهنا):

يا قلبُ إنْ يمنحك ذا الدهر الأسى
وسيفجمنك باغتتيال حياتكا
فاغنم بهذا الروض أوقات الهنا
قبل امتزاج نباته برفاتكا

* فى السرور:

قم ودعْ همَّ عالمٍ سوف يفتنى
واغتتم لحظة السرور لَدَيْكَ
إن يكن فى الزمان أدنى وهاء
لم تحصل نوبَةُ الهناء إلَهْكَ

* فى طريقة علاج الهم:

لا تدعْ الهمَّ يعتريك ولا
يخضق بك العيش وأطرح كمدك
ولازم الروض والمياه وطب
من قبل أن يعصر الثرى جسديك

• في الفناء وراحة الهال:

خِيَامِ طِبِّهِ إِنْ نَلَّتْ نَهْمَةُ تَرْقُبِ
وَحَبَّكَ وَرَدَى الضُّدَى وَمَصَالَا
إِنْ كَانَ عَاقِبَةُ الوجودِ هِيَ الفَنَاءُ
فَافْرُضْ فَنَاءَكَ وَهَيِّئْ سَعِيداً بِالآ

(٣)

تَهْمَةُ الزَنْدَقَةِ

الزندقة نسبة إلى كتاب الزند من كتب زرادشت، والزنديق هو المعتقد في هذا الكتاب. والقول بأن الخيام زنديق يعني أنه مجوسى كما يقول الإسلاميون، والمجوسية هم عبدة النار، وكان زرادشت قد اعتنق عبادة النار، وانتشرت بيوت النار في كل أنحاء فارس. والزندشتية أو المجوسية أو المازدية أو المزدكية كما تسمى أحياناً، ديانة فارسية تنسب إلى زرادشت، وكان ظهوره في القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد في بعض الآراء، وفي البعض الآخر كان في القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد، وكانت ولادته بأثربيجان، وانتقل إلى فلسطين كما تقول الرواية، واستمع إلى أنبياء بني إسرائيل من تلاميذ إرميا النبي، ولم تظمن نفسه لليهودية، فرجع إلى بلده واعتنق دياناتها. وقيل في شأنه أنه كان كالمسيح، فالله قد مزج روحه بلبن بقرة شربه أبو زرادشت فتخلقت منه نطفته في رحم أمه، وقصدها الشيطان ليفسدها، فسمعت أمه هاتفاً، ربما كان حياً، بعدما بتخليصه من كل فساد. وعندما أُدِّتْ تكلم في المهدي وسمعه الحاضرون. ولما بلغ الثلاثين تنبأً ونُسبت إليه خوارق، فهو يحيى الموتى ويبرئ الأعمى، وقرأ على الناس من كتاب يوحى إليه به، مؤداه أن العالم روحانى وجسمانى، والخلق إلى التقدير والفعل، والوجود إلى النور والظلمة، والموجودات من هذا أو من ذاك، يعنى من الخير أو الشر، والكون كله مسرح صراع بين القوتين، والمآل في هذا الصراع في آخر الزمان لانتصار إله النور أهوراً مازدا (ومنه كان اسم المازدية أو المزدكية).

ولما تحدت الإسلاميون في الزردشتية صورها في صورة الملة التي تدعو إلى التوحيد كدأبهم حتى عندما تحدثوا عن الفلسفة اليونانية، ومن ثم ظن المستشرقون أن هناك تشابهاً بينها وبين الإسلام، أى أن الإسلام استقى منها. والحقيقة أنها أشبه بالمسيحية، وكلاهما واضح فيهما الغنوص.

وقضى الإسلام على الزردشتية لما دخل فارس، لولا بقايا من الزردشتيين فرّوا إلى الهند ويدعون فيها البارسيين. وكان للزردشتية تأثير كبير على بعض طوائف الباطنية من قرامطة وحشاشين وغيرهم، واعترفت بها البهائية.

والزندقة اتهم بها الخيام، وتفيد معنى الارتداد عن الإسلام إلى المجوسية. والبعض من الفرس كانوا يرتدون فعلاً نكايّة في المسلمين. وكانت الزندقة من الدعاوى العنصرية التي أساسها الشعوبية، بتأثير اعتقاد الفرس أنهم أحقّ من العرب وأولى بكل هذا الملك، لرسوخ قدمهم في الحضارة أكثر من العرب.

ومن الزنادقة قوم دعوا إلى طلب الشهوات واتباع اللذات، وكان اسمهم بالفارسية الغورمية، من الغورم وهو المستلذ المستطاب كما أسلفنا في شرح الباطنية، وكان هذا لقب المزدكية أو الزردشتية من أهل الإباحة من المجوس الذين نبغوا في أيام قباد وأباحوا النساء حتى المحارم وأحلوا كل محظور وكانوا يسمون خرمدينية.

ولم يعرف عن الخيام الحقيقي أنه كان معادياً للجنس العربي، ولم يذكر له عيب واحد من ذلك في مجالساته التي كانت تدار مع العلماء والفلاسفة بالعربية. وكان لسانه العربي مبيناً كما سندرس ذلك في شعره العربي، وكما اتضح لنا من فحص رسالاته الفلسفية الأربع. وكان متديناً شديداً القديين. وحتى القفطي في تحامله عليه لم يقل إنه مجوسي، وإنما أخذ عليه علمه اليوناني وفلسفته في الإلهيات ويروي الشهرزوري في نزهة الأرواح (نحو ٦١١ هـ) أن الإمام عمر دخل يوماً على شهاب الإسلام الوزير عبد الرازق، وكان عنده إمام القراء أبو الحسن الغزالي، وكانا يتكلمان في اختلاف القراء في آية، فقال الوزير «على الخبير سقطنا»، وسأل الإمام عمر عن النقطة الخلافية، فأجاب ذاكرًا اختلاف القراء وطل كلام كل واحد منهم، والشواذ وعللها، وفضل وجهاً واحداً من الوجوه على سائرهما، فقال الغزالي أكثر الله في العلماء من أمثالك. وقال اجعلني من بعض أهلك وارض عني!! ما ظننت أحداً من القراء في الدنيا يحفظ الذي سمعته منك ويعرفه، فضلاً عن واحد من الحكماء!!!

هذه هي شهادة الغزالي (القراء) أوردتها الشهرزوري، يؤكد أن الخيام هو العالم النحرير، واللغوي الضليع، والفقير المتمكن، فكيف يكون من هذه مكانته وخلفه ودينه حتى ليتمنى الغزالي أن يجعله من أهله - كيف يكون زنديقا؟

وإن صدقت هذه الصفة على صاحب الرباعيات المزيفة فهو هذا الخيام الآخر المزيف أو

النقيض الذي يقول:

يدُ لى فى جام، وأخرى بمصحف
وطوراً أنا الجانى، وطوراً أنا العَفُ
أهيهى ومالى تحت ذا الألق مبدأ
فلا مسلمٌ محضٌ ولا كافرٌ صرفُ

(٦)

تهمة اللاادرية

تتناقض هذه التهمة مع القول بأن الخيام كان علامة في الرياضيات، فكيف يكون كذلك وهو لا يدري؟ وفي كتابه الجبر والمقابلة يقول: كنتُ وما زال شديد الحرص على تحقيق جميع أصناف المسائل الرياضية وتمييز الممكن من الممتنع من أنواع كل صنف ببراہين، لمعرفتى بأن الحاجة إليها في مشكلات المسائل ماسة جدا. ولم أتمكن من التجرد لتحصيل هذا الخير والمواظبة على الفكر فيه لاعتراض ما كان يعوقنى عنه من صروف الزمان، فإننا قد منينا بانقراض أهل العلم إلا عصابة قليلة العدد، كثيرى المحن، همهم افتراض غفلات الزمان، ليتفرغوا في أثنائها إلى تحقيق واتقان علم. وأكثر التشبهين بالعلماء في زماننا هذا يُبسون الحق بالباطل، ولا يتجاوزون حد التدليس والترائى بالمعرفة، ولا ينفقون القدر الذى يعرفونه من العلوم إلا في أغراض بنية خسيصة. وإن شاهدوا إنساناً معنياً بطلب الحق وإيثار الصدق، مجتهداً في رفض الباطل والزور وترك المراياة والخداع، استحمقوه وسخروا منه».

وكان الخيام في انتقاده للعصر والفلاسفة، وحتى لأهل العلم، يعيب عليهم أنهم لا يأخذون بالمنهج العلمى. وكان نبوغ الخيام في الرياضيات بخاصة، وعرفه أهل عصره كعالم رياضى ولم يعرفوه كشاعر. وكان تعاطيه للفلسفة ثانوياً إلى جوار انشغاله بالرياضيات. والمنهج الرياضى من أعرس المناهج وأدقها. والمتمتحن للرياضيات ينطبع بهذا المنهج في تفكيره ويجعله أسلوب حياته. والمسلمون في عصر الخيام - القرن الرابع الهجرى - كانوا قد ترجموا الرياضيات اليونانية - أبولونيوس وأرخميدس وإقليدس وبطليموس. والخيام كعالم رياضى - بل أكبر عالم في زمنه - كان على قمة هذه الحضارة العلمية، وقد امتدحه جورج سارتون وجيبون وبروكلمان وعشرات من مؤرخى العلوم وأساتنتها في الجامعات الأوروبية والأمريكية،

واعتبروا كتاباته ثورة رياضية، وليس أقل من أن يكون من له هذه المكانة وهذه المعرفة الموسوعية مفكراً على قدر معين من اليقين فيما يعلمه ويقوم بتدريسه، والمنطق الرياضى يتعارض مع اللاأدرية.

واللاأدرية مصطلح سوفسطائى قديم، وكان استخدامه فى الفلسفة أساسا، وفى مجال الإلهيات خصوصا، ولم يبدأ استخدامه فى العلوم إلا مؤخرا، وقيل إن توماس هكسلى العالم الإنجليزى (١٨٢٥ - ١٨٩٥) كان أول من طرحه للاستخدام من العلماء.

واللاأدرى فى الإلهيات هو الذى يعلن عن عجزه عن إثبات وجود الله، وكذلك عجزه أن ينكر وجوده، إقراراً منه بأن هذه المسألة مما لا يقوى على مناقشتها عقله وتتجاوز قدراته. وقد يؤسس اللاأدرى على هذا العجز أن الأولى به الأخذ بالإثبات على الإنكار.

وقد سبق أن ناقشنا فى الفصول السابقة التى تناولنا فيها رسالات الخيام الفلسفية حقيقة إيمانه بالله، وأنه كفليسوف ورياضى يأخذ ببرهان العلة الأولى الذى قال به أرسطو وابن سينا وغيرهما فى إثبات واجب الوجود، أى الله، إلا أنه وجدانيا ظل يستشعر عجز العقل عن الوفاء بمتطلبات هذه المهمة الكبرى، بل أكبر المهام وأخطر قضايا الفلسفة. وهو يقول فى إحدى رباعياته ما معناه إن عقلى ليقصر عن إثبات وجودك يارب، وأنه إزاء ذلك لا أملك إلا أن أدعوك لتهدينى فأعرف منك ما أجهل عنك، ولو أنى أشك أن عقلى يمكنه أن يستوعب عنك، ولست أحسب أنى أستطيع أن أعرف ذاتك، فما يعرف ذاتك فى الحقيقة إلا ذاتك!

ومع ذلك فإن الخيام يعرف أنه لو قطع بأنه لا يدرى عن الله لناقض نفسه، إذ كيف يقطع فيما لا يدرى! ومن ثم فهو يؤمن، وكأنه يقول لأنى لم أعقل فقد أمنت. وإيمانه ليس الإيمان الفطرى الذى للعوام، وليس الإيمان الواجب الذى لا برهان له عليه، ولكنه مطلق الإيمان، والفرق بينه وبين الإيمان المطلق، أن الثانى عن تصديق وليس عن بيّنه، وهو إيمان الصّديقين ومنهم أبو بكر الصّديق، ومن صفاته أنه لا يزيد ولا ينقص، والأول يطلق على الإيمان الناقص والكامل، ولذلك نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم الإيمان المطلق عن الزانى وشارب الخمر والسارق، ولم ينف عنهم مطلق الإيمان.

وإيمان الخيام إذن هو مطلق الإيمان، وهو إيمان يزيد وينقص، ومن أجل ذلك يستشعر القلق، ويعيش الخوف، وتشمله من أن لآخر الرعدة التى يحكى عنها كير كجارو الفيلسوف

الوجودى فيصرخ عذاباتة فى رباعيات شعرية، ويستنزف توتره فيها .

وإيمانه ليس الإيمان المطبوع كما عند الملائكة، ولا الإيمان المعصوم كما عند الأنبياء، ولا الإيمان المقبول كما عند بسطاء الناس، ولا هو الإيمان الموقوف كإيمان المتقدمين، ولا الإيمان المرود كإيمان المنافقين، ولكنه إيمان وجودى، قضية حياة أو موت يعيشها بكامل وعيه ويهتم بها وجدانه، فمرة يشك، ومرة يتيقن، كإيمان النبى إبراهيم عليه السلام إذ قال ربي أرنى كيف تحيى الموتى، قال أو لم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبى!!

وإيمانه فيه البصر والبصيرة، والعقل والقلب. وكان الخيام يقول: من المجهودات ما هو خال عن اللمية وهو الأشياء الواجبة التى لا يمكن أن تكون موجودة، وإن فُرِضت غير موجودة لزم منه محال، والشئ الذى يكون بالحقيقة على هذه الصفة لا يكون له سبب ولىة فيكون إذن واجب الوجود بذاته، وهو الواحد الحى القيوم، الذى عنه الوجود لكل موجود، وبوجوده وحكمته فاض كل خير وعدل، جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه. - ويقول الخيام أيضاً: وقد تبين فى العلم الإلهى أن السبب الذى لا سبب له هو واجب الوجود بذاته، واحد من جميع جهاته، ويرى من جميع أنحاء النقص، وإليه تنتهى جميع الأشياء، وعنه توجد. - ويقول: العناية السرمدية الحقّة توجهت نحو الخير، إلا أن هذا الخير لا يمكن أن يكون مبرماً خالياً من الشر والعدم، فليس الشر منسوباً إليه إلا بالعرض، وليس الكلام هنا بالعرض بل بالذات. وإنى أوصى كل من أهرفه من الحكماء بتقديس ذلك الجناب عن الظلم والشر. وهنا من التفصيل والتحصيل ما لا تفيه العبارة، ولا يقدر المخبر على الإخبار به لقصور البيان عنه، والحسد المصيب ينال من ذلك ما تقنع به النفس الكاملة وتنوّق به اللذة العقلية القصوى.

وكأنى بالخيام يقول بفلسفتين أو نمطين من التفكير: أحدهما عقلى نقدى يقوم على التحليل المنطقى، والآخر يجافى التحليل ويسعى لتحصيل النتائج العامة بالحدس المباشر الشخصى وهذا النمط الثانى هو المعروف بالحكمة والذى يسمى الفلسفة التأملية.

ومانخلص إليه من أقوال الخيام السابقة فى الرسائل أن الفلسفة هى التشبه بالإله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية، كما أمر الصادق صلّى الله عليه وسلم فى قوله: تخلّقوا بأخلاق الله. أى تشبّهوا به فى الإحاطة بالمعلومات والتجرد عن الجسمانيات.

والخيام فى الرسائل تحلىلى منطقى، وفى الرباعيات تأملى حدسى.

ومنطقة فى الرباعيات ليس المنطق اللادرى ولكنه المنطق الوجودى: الشعور بالوجود،

ليس عن طريق الفكر المجرد، لأن الفكر المجرد هو انتزاع من تيار الوجود الحى بعيداً عن الحياة المتوترة. وما ينشده الخيام هو استبطان مباشر من ذاته لنفسه، يمسك به تيار الحياة، وينشب به أظفاره فى الواقع، والذات فيه تريد أن تعرف، وأداتها الوجدان وليس العقل، ومقولات الوجدان تتراوح بين النقيضين، ومنطقه دياكتيكي وجودى، وانسياقه وجودى يصدر عن العاطفة والإرادة - وهو توتر بين التالم والسرور، والحب والكراهية، والقلق والطمأنينة، والخطر والأمان!!

وهذا هو الخيام الحقيقي الذى نعرفه من الرباعيات، والذى يتجاوز اللأدرية، والذى قلنا عنه إنه فليسوف وجودى - وربما كان أول فليسوف وجودى فى الإسلام.

* يقول الخيام فى الحزن والسرور:

من تحرى حقيقة الدهر أضحى
عنده العزن والسرور سواء
إن يكن حادث الزمان سيفنى
فليكن كله أسى أو هناء

* وفى الضحك يوماً والبكاء حولاً:

قالت الوردة لا خدّ كخدّى فى البهاء
فإلى م الظلم ممن يبتفى عصراً لئامى
فأجاب الليل الفريد فى لعن الفناء
من يكن يضحك يوماً يقضٍ حولاً بالبكاء

* وهو لا يدرى متى انتهاء العالم:

ليس يدرى بمنطق وقياس
أى وقت دارت به الزرقاء
أو متى تصبح السماء خراباً
فتداهت وأنهت منها البناء

هو يقول مَنْ وأين ومتى لا أنرى:

لا تحسبني جئت من نفسي ولا
قطعت وحدى ذا الطريق المُعْتَنَى
إن يكُ منه جوهرى وَمَنْعُنَى
فَمَنْ أنا وأين كنتُ ومتى؟

(٧)

تهمة الدهرية

قيل فى الخيام إنه دهرى، والدهرية أصلا من ديانات فارس، وفرقة من الباطنية، أطلقوا عليها اسم الزوانية، نسبة إلى زوفان أو زوان بالفارسية بمعنى الدهر.

والدهرية يقولون بِقَدَمِ الدهر واستناد الحوادث إليه كما أخبر الله تعالى عنهم «وقالوا ما هى إلا حياتنا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر» (الجاثية ٢٣) ويجمعون الصانع المدبر العالم القادر، ويؤمنون أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه لا بصانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كذلك كان، وكذلك يكون أبدا.

والدهرية هم الزنادقة ينكرون النبوة والبعث والحساب، ويرتّبون كل شئ إلى فعل الأفلاك. ولا يعرفون الخير والشر، وإنما اللذة والمنفعة.

والطبيعيون الدهرية بخلاف فلاسفة الدهريين، والأولون يقولون بالمحسوس وينكرون المعقول، بينما يقول الآخرون بالمحسوس والمعقول معا وينكرون الحدود والأحكام، وفى كتاب الرد على الدهريين لجمال الدين الأفغانى الذى ترجمه الشيخ الإمام محمد عبده من الفارسية إلى العربية - لا يميز بين الطبيعيين الدهريين وفلاسفة الدهرية، ويتحدث عنهم مرة باعتبارهم طبيعيين ومرة يقول إنهم الدهرية.

وصارت الدهرية دينا صريحا فى عهد يزيدجرد الثانى فى الدولة الساسانية، وذهبوا إلى ترك العبادات لأنها لا تفيد، وإنما الدهر بما يقتضيه مجبول من حيث الفطرة على ما هو فيه، فما ثم إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وسماء تقلع، وسحاب تقشع، وهواء تقمع، ويسمون بالملاحدة أيضا.

وفى كتاب مرصاه العباد الذى يعلق فيه نجم الدين أبو بكر على كتاب جهارمقاله أن
الفيلسوف الدهرى الطبيعى (يقصد الخيام) قد تاه فى بيداء الضلال بقوله هذه الرباعية:

ليس لذا العالم ابتداءً
يبسود ولا غايةً وحدً
ولم أجد من يقول حقاً
من أين جننا وأين نغدو

ولو قارنا ما فى هذه الرباعية بما فى الرسالة الفلسفية الأولى للخيام نجده يقرر فى
الرسالة:

- ١ - أن الله واجب الوجود تنتهى إليه علل وأسباب جميع الموجودات.
- ٢ - وأن العالم بما هو كذلك مُحَدَّث، والله تعالى مُحَدِّث.
- ٣ - وأنه تعالى واجب الوجود لا يأتيه النقص ولا الحدوث من أى جهة من جهاته.
- ٤ - وأن الحق قد جعل التكليف للأشخاص الإنسانية إلى كمالاتهم المُسعدة لهم فى حياتهم الأولى والأخرى - أى أن الخيام يقول بحياة أخرى بعد هذه الحياة.
- ٥ - ومعنى ذلك أيضاً أنه يؤمن بالبعث.
- ٦ - ويقول إن الحساب فى الحياة الأخرى يرد العباد فى الحياة الأولى عن الظلم والجور وارتكاب القبائح واكتساب النقائص والانهماك فى متابعة القوى البدنية المانعة إياهم عن اتباع القوة العقلية.

ومن ذلك ترى أن الرسالة الأولى المُنوَّنة حكمة الخلق والتكليف لا تستقيم معها هذه الرباعيات إطلاقاً مما يقضى بأنها من الرباعيات الموضومة، وما أكثرها عند الخيام، وعند من يحفظون له وهى ليست له. وكما يقول مترجمه عبد الحق فاضل - ما من محقق يسعه أن يجزم بأن معشار تلك الرباعيات التى تعد بالألوف والتى تكتظ بها النسخ المختلفة هى للخيام حقاً.

تهمة التناسخية

يذكر تاريخ ألفي لابن نصر الله التتوي السلدي أن عمر الخيام كان على مذهب التناسخ، فمما يروى عنه أنه لما كان يمشى في باحة مدرسة قديمة في نيسابور مع جمع الطلبة، رأى حماراً بين الحمير التي كانت تنقل الطوب اللبن لترميم المدرسة، فحزن الحمار عن الدخول، وتبسم الخيام واقترب منه، وأنشد في أنه ربايته التي تعنى: أيها الذي ذهب ثم عاد وقد صار حيواناً، والذي تاه اسمه من بين الأسماء، وتجمعت أظافره فصارت حافراً، وظهرت لحيته من جانب عجزه فصارت ذيلاً. وعندما سمع الحمار ذلك دخل، فسألوا الخيام عن ذلك فقال: إن الروح التي تعلقت بجسم هذا الحمار كانت في بدن مدرس بهذه المدرسة، ولهذا كان يستحي أن يدخل، ولكنه لما علم أن أصحابه عرفوه دخل مضطراً!

والتناسخ الذي ينسبه الرواة إلى الخيام يتناقض مع اعتقاده في البعث، فالمعروف أن التناسخ لم تقل به إلا طوائف من الشيعة كالسبائية والخطابية، ومذاهب أخرى هندية وفلسفية يونانية قديمة، وأنكرته الشيعة الاسماعيلية. ولم يكن الخيام على أي من هذه المذاهب أو الفرق. والغالب أن انتقال التناسخ إلى المسلمين من خلال الثنوية الإيرانية، ويقول عنهم الشهرستاني إنهم كانوا يقولون بتناسخ الأرواح في الأحياء وانتقالها من شخص إلى شخص، فما يلقاه من الراحة أو التعب أو الدعة أو النصب إنما يترتب على ما أسلفه في حياته وهو في بدن آخر جزاءً على ذلك. والإنسان أبدأ في أحد أمرين، إما في فعل، وإما في جزاء، وما هو فيه فإمماً مكافأة على عمل قدمه، وإمماً على عمل ينتظر المكافأة عليه. وكان التناسخ عند السبائية يعني انتقال الأرواح المطيعة إلى الأبدان الطاهرة والصور الحسان، وانتقال الأرواح الشريرة العاصية إلى الأبدان النجسة والصور المذمومة كالكلاب والقرود والخنازير والحمير كما في الحكاية السابقة عن الخيام. وأما الخطابية فزعموا أن أرواح من جحد أمرهم تجرى في كل الأشياء وكل ذي روح، وفي المأكولات والمشروبات والملبوسات والمنكوحات، وفي كل رطب ويابس. ويبدو أن القائلين بالتناسخ قالوا أيضاً بقدوم العالم، وخالفهم الدهرية، لأن معنى التناسخ أن الأنفس لها وجود قبل أشخاصها، بينما الدهرية يقولون إن وجودها بوجود أشخاصها. وكان إنكار الاسماعيلية للتناسخ انطلاقاً من إيمانهم بالبعث والحساب والجنة والنار.

وعلى ذلك، وبحسب معتقدات الخيام التي يطرحها في الرسائل الفلسفية فإنه لا يمكن

أن تصدر عنه حكاية كهذه فى التناسخ، وقد نفينا عنه أن يكون شيعياً بالنظر إلى أصوله السُنِّيَّة. ولا تعدو هذه الحكاية إلا أن تكون من الافتراءات الكثيرة التى نُسبت إليه، والتزويرات التى انتحلَّت عليه، وليس فى كتاباته النظرية ولا فى رباعياته أياً كانت ما ينبىء أنه كان على الدعوة التناسخية.

ومع ذلك فمن الممكن تصديق هذه الرواية باعتبارها مشهداً تمثيلاً فكاهياً المقصود به أن يُسرَى الخيام عن تلاميذه فى موقف كان لا أقل فيه من التعامل مع بروح الفكاهة، ولنا أن نتصور تلاميذ الخيام وهم مجتمعون حوله، والحمار غير بعيد عنهم يحاول أصحابه دفعه بحمولة الطوب اللبن، والحمار رافض، وهو مشهد لو طال فإنه لا بد أن يستدعى منهم الضحك من ناحية، ولا بد فيه من التدخل لإنهائه من ناحية أخرى كى يكون انقباة التلاميذ مع الخيام وليس مع الحمار الناشز، فكان ما كان من تدخل الخيام وانبهار التلاميذ بالنتيجة، وليس أقل من أن يكون التفسير الذى يطرحه لسماح الحمار لما أسره فى أذنه منسجماً مع روح الموقف، فقال ما قال مستدعياً ضحكهم. فإن كان بعض المؤرخين قد أخذوا المسألة مأخذ الجد فذلك مرجعه إلى سوء النية المُبَيَّت تجاه الخيام إسماءً، وتجاه الإسلام والمسلمين فعلاً، بتلطيخ سمعة الخيام وإلصاق التهمة تلو التهمة بكبار مفكرى الإسلام والعقول المحسوبة على المسلمين، خطأً من قدر الثقافة الإسلامية، وتهويناً من مكانة هؤلاء العظماء فى تاريخ الفكر الإسلامى بل والإنسانى.

ثم إن هذه الحكاية الفكاهية بحساب أهل التحليل النفسى تضيف بعداً نفسياً مهماً إلى شخصية الخيام، وتتعارض مع قول البيهقى فى توصيف شخصه بأنه كان «سئ الخلق ضيق العطن»، مما سنتعرض له من بعد عند حديثنا عن شخصية الخيام فى فصول لاحقة.
